

تاريخ بناء القرويين

7306 ? 263 ? 245

للدكتور هب الراهي النازي

إن كل أولئك الذين كتب لهم أن يراولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً أن ابن أبي زرع في كتابه القراطس نقلا عن أبي القاسم ابن جنون في تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حدوا حدوه من أمثال الخرنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في تاريخه : العبر ، وابن القاضي في جذوة الاقتباس وغير هؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع في حفر أسامه والأخذ في أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ٨٥٩) بمطالعة المعامل الادريسي يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائتة عتقة الى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمع الباحث نفسه بالاستسلام للشك فيها والبرود أمامها سيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعني وقت بني مرين أوائل القرن الثامن الهجري ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للادارسة ، أنها لوحة منقرشة عثر عليها - عند أعمال الترميم - في البلاط الأوسط فوق قوس المحراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها - في جملة ما كتب - بخط كوفي أفريقي عتيق : ه ... بنى هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة بما أمر به الامام أعزه الله داود بن ادريس أبقاه الله ... ونصره نصرأ عزيزأ .

وما دمتا في استعراض الآراء حول تاريخ القرويين لا بد أن نعرض لرأى ثالث نقله الدكتور أوسكار لانز (١) ، فلقد ساق ترجمة لتقش قيل أنه عثر

Oskar Lena : Voyage au Maroc Paris 1886 vol 2, (1)

عليه فرق « صحيفة فضية » مفروزة في أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « .. بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبوى .. » أى في أيام ولاية يحيى الرابع ..

وحتى نرجع الى حديث قاطمة وداود نشر الى أن رواية الدكتور لانز لا نغيرها أى وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيما مع ما حكاه عن الطالب ادريس الذى زوده بهذه الوثيقة والذي لم يكتمه أنه وجد صعوبة في الوصول الى بقية النقش ، الأمر الذى يقرب الى « أساطير » السباح أكثر مما نخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق - حسانياً - يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس ... وبعد فلنرجع الى ابن أبي زرع ، واللوحة المنبئة .

ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف في كلمة وجيزة عن الامام داود بن ادريس تاركاً التفصيل للبحث الذى كنت كتبه خصيصاً عن هذه الشخصية (١) .

بالرغم من أن جميع المؤرخين تخلوا على داود بأكثر من كلمة واحدة تلخص في أنه « ملا توفى ادريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار اخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذى استأثر باقليم تازة وقد رددت سائر المصادر « الفتنة » التى نشبت بين بنى ادريس على أثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد بحال الذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الأمر يعد في عداد الضامنين لولا عناصر ثلاثة :

(أولاً) اليعقوبى (٢) الذى يذكر أن داود ابن ادريس كان والياً على عدوة الأندلس وأنه كان « يدافع » يحيى صاحب عدوة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى .

(١) التازى ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة ابريل ١٩٦٠ - مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢

(٢) اليعقوبى ، أخبار البلدان ، طبعة لندن ١٨٩٠ - ص ١٣٧
Blachère, Hespéris I, 18 - 137 pages 41 - 42 - 43

ثانياً) الدرهم الموجود بالمكتبة الوطنية بباريس الذي يحمل اسم
الامام داود بن ادريس (١) .

ثالثاً) هذه اللوحة الأثرية التي يحتفظ بها الآن في المركز الرئيسي
لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية وبعد هذا نرجع الى الحديث .

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟

لقد كنت ككيت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة فى الموضوع نشرت
فى مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب (١) ، أو القاهرة (٢) ، أو تونس (٤)
وأسبانيا (٥) ، وكنت قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم
يساعدون على اضاءة الضوء على هذه الحقائق ، ومن سوء الحظ أتى الى
الآن لم أقت على « رد الفعل » من طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض
« الفروض » التي تلقيتها من بعض الأساتذة الاجلاء الذين حرصوا
على أن يجعلوا نقل القرطاس فى نجوة من الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض
« تواتراً » متواتراً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت
من مكان آخر وغرزت هناك . وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة
التي رجح فيها النفوذ للشرفاء الادارسة بواسطة محمد بن على الحوملى (٦) .

وفى الناس طائفة ثالثة بصمسون على أن يأخذوا بما ورد فى مدلول
اللوحة نظراً أولاً لكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثير من هفوات عن

La voix, catalogue des Monnaies - Musulmanes de la Bibliothèque (١)
Nationale p. 69 no 921

(٢) التازى - مجلة العربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ من ١٠-٢١

(٣) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ من ٢٤٤-٢٤٥

(٤) التازى - مجلة الفكر - السنة الخامسة عدد ٩ مارس ١٩٦٠

(٥) التازى مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد - المجلد السادس ١٩٥٨ من ٢٧٧-٢٧٨

(٦) Devcrdun, mélanges d'histoire et d'Archeologie T. 11 page 72

عن القرطاس ، وثالثا لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدماء من أمثال يعقوب
والبكري وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم
لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذي عرف في القرطاس .

فإذا تكون الحقيقة ؟

أما التوضيح « بنهد اللوحة فأمر سلي لا يسمح به المؤرخ الزبيري ، وأما عن
أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فإنه يعده مخدس أن التاريخ ظل
صامتا صمتا مطلقا عن مؤسسات داود بن ادريس في مناطق نفوذه
فلا يمكن أن ندعى أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التي كانت
على ذلك المسجد هي التي نقلت . لكن الأبعد هو القول بأن عمدة النقل
تمت على عهد الوطاسيين مع أنها وجدت تحت الخيس الذي ضرب - منذ
نهاية دولة المرابطين - على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ
أبدا عن ازاحة والتبليط (١) الذي قام به فقهاء فاس أو المسؤولون في الدولة
الموحدية ، لذا فإمام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتبارها لما نقل عن يعقوب
وعرف من أمر السكة الداودية واحتراما لما نقل عن أبي القاسم بن جنون (٢)
وإلى محمد عبد الملك بن محمود الوراق (٣) مما تردد صداه في الأبنس المطرب
وانعكس في زهرة الآس والعبير والحذوة ، ونظراً لأننا لم نعرّ لحدا الآن
على نص تاريخي آخر يعزى بناء الإمام داود لجامع القرويين ، ونظراً
لكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول
مراعاة لكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

- (١) مجلة الآداب - الاسكندرية ، العدد ٤٤ سنة ١٩٦٠ من ٦٠ - ٨٨ - المؤتمر
الثالث لآثار العربية ، نشر الجامعة العربية صفحة ٤٤٥ - ٤٦٥ . الترية الوصفية دجنبر -
سنة ١٩٦٠ ص ٤٤ ، التازي : جامعة القرويين في أحد عشر قرناً ، طبعة الحميدية ص ٨
- (٢) رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهزة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع
لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٧٢٢ ج
- (٣) مخطوط في تاريخ الادارسة من كوينهاين مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة
الدول العربية .

فأما أن يكون ابتداء البناء كان في رمضان ٢٤٥ في أيام يحيى ولكنه استمر الى سنة ٢٦٣ أيام داود بن ادريس وتكون فاطمة استغرقت في صومها كل هذه المدة، ويعزز هذا الرأي أولاً ما استهدفت له البلاد من حالة الحفاف في هذه الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والترامت من استخراج كل مواد البناء من نفس البقعة تحرياً ، وثالثاً أن المصادر التاريخية انما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم في نفس السنة نظراً لكون الجامع - ومساحته لا تصل الى ألف متر مربع - لا يمكن البناء في أمر بنائه طيلة ثمانية عشر عاماً . ويفسر وجود داود بن ادريس هنا بأنه في الفترة التي كان « يدافع » فيه يحيى تمكن في بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتحليداً لهذا الفوز الذي حصل عليه في عدوة القرويين ورغبة في أن تعرف الأجيال القادمة أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكاري في هذه الجهة . ولما كان الملوك ، والرؤساء يختارون ابرز مكان واشهره لتحليد أفعالهم وكان أفضل مكان في المسجد واطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه الأبرزة عليه حتى تظل أمام المتعبدين والقاصدين . بقي أن يتساءل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

اننا نعلم أن التقاليد لا تلح في ذكر احوال النساء على المياني سيما مع ما اثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشايخ وترجع الى الملوك تبنيها تقديراً لهم وتكريماً لقيامهم .

وبعد ... فهل ستكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟